١٠ ـ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ حسن الطويل

المالكى

الامام العلامة ، شيخ الشيوخ ، وأستاذ الأستاذين ، وأحد من تفرّد فى مصر بالبراعة فى المعقول والمنقول ، وأتقن العلوم العديدة مع الزهد الصحيح والورع وعلوّ النفس ، والتأدب بآداب الشرع والتمسك بالكمالات .

وهو حسن الطويل بن احمد الطويل بن على ، ولد بمنية شهالة إحدى قرى المنوفيـة ، حوالى سنة ١٢٥٠ كما سمعته من تلميذه الخاص العلامة الشيخ أحمد أبى خطوة . وذكر الشيخ بشـير الظافر فى كتابه اليواقيت الثمينة فى أعيان مذهب عالم المدينة ، أنه ولد سـنة ١٢٥٦ ، وتربى بهذه القرية فقرأ القرآن الكريم وحفظه بها ، ثم انتقل الى طندتا وهو صغير ، فاشتغل بتجويد القرآن وحفظ المتون بالمسجد الأحمدى نحو سنتين أو ثلاث ، ثم حضر للقاهرة واشتغل بطلب العلم بالجامع الأزهر ، فقرأ على شيوخ العصر ، مثل الشيخ محمـد عليش المالـكى فى الفقه والحساب وغيرهما ، وعلى الشيخ حسن العدوى الحمزاوى ، والشيخ ابراهيم السقاء ، والشيخ محمد الأشمونى ، والشيخ محمد الأنبابى ، والشيخ أحمـد شرف الدين المرصفى ، فظهرت عليه النجابة ، وابتدأ فى حضور السعد ، وكان من دأبه فى أول أمره معاكسة المشايخ فى الدروس بكثرة الأسئلة والمناقشات ، حتى حدث مااضطره إلى الأنقطاع عن الأزهر ، وسبب ذلك أن أبناء العمد وأقاربهم طلبوا للدخول فى الجندية بقانون وضع لذلك أمر به سعيد باشـا والى مصر ، ولما كان المترجم من أقارب بعض مشايخ قريته طلب معهم

تجنيده بأمر سعيد باشا

وجند مع من جند فصار واحداً منهم ، إلا أنه لم يسلك مسلك أكثرهم فى التفريط فى الفروض ، فكان يواظب على الصلوات والأوراد ، وكان الوالى يكره من الجند من يصلى ، وحدث أن المترجم جاءه من شيخه الشيخ احمد شرف الدين المرصفى كتاب فيه استغاثة يأمره بتلاوتها عقب كل صلاة ، رجاء أن تفرج كربه وتخلصه من الجندية ، فوقع الكتاب فى أيديهم ، وعدوه لذلك مذنباً ، وكان عقاب المذنبين عندهم اهمال تعليمهم الفنون العسكرية وتشغيلهم فى السكك الحديدية وما أشبهها من الأعمال الشاقة ، فكان المترجم يشتغل فى هذه الأعمال بهمة زائدة تأديباً لنفسه ، لأنه ظن ماوقع له عقاباً على جراءته على مشايخه ، وكان سـعيد باشا يلقب المطيعين من الجند بالفراعنة ، والعاصين المذنبين بالنماردة ، فغضب مرة على النماردة وأمر بطردهم من الجيش ، فخرجوا منه إلا أنهم بقوا تابعين له ، وهم ما كانوا يسمونهم بالعساكر الأمدادية ، وخرج المترجم معهم ، فأقام بقريته مدة ، وكان قبل ذلك يجتمع على الشيخ خالد أحد مشايخ الطريق فرأى أن يسافر اليه فسافر الى بلدته المسماة بالسريرية من أعمال المنية أى منية ابن الخصيب ولزمه بعض أشهر عكف فيها على الاشتغال بالعلم والطريق

فراره

ثم طلب الى الجندية مرة ثانيـة فذهب اليه أبوه ليحضره وأراد الشيخ خالد منعه فلم يرض هو بل عاد مع أبيه الى قريته فوجدهم أهملوا طلبه ، فحمد الله وأراد والده ابقاءه معه فى القرية خوفاً من أن يعود الى الصعيد ، فضاق المترجم بهذا الأمر وخرج

أما اليوم فالذاكرة الحافظة هى غاية الغايات ، يكدسون فيها ضروب العلوم والفنون على مدى ضيق من الزمن كما يكدسون فى المركب أصناف البضائع على غير نظام ولا تؤدة لتقلها إلى المرفأ سالمـة لا أكثر ولا أقل . والمرفأ هنا هو الفحص الذى ينتهى عنده الدرس ، وينسى الطالب بعده ما اكتسب من العلوم . ذلك بأنه تعلم منفعلاً لا فاعلاً ، تعلم كما تدور الآلة من غير وعى ولا تفهم ، فالبرامج واسعة ، والوقت قصير ، والتمثيل منعدم ، والهضم سىء .

وجملة القول أن التربية الحديثة ، لا تتلاءم مع شرائط الصحة العقلية ، ولا تهيء العاطفة للفن والكتابة . وما دام الخروج على البيئة مستحيلا ، فان تهذيب الشعور وتنمية التفكير مطلبان جليلان ينبغى العناية بأمرهما والنهوض بهما ؟

حمص « سوريا »

محمد رضى فيصل

من غير علم أبيه من القرية وهو لا يملك شيئاً ، فمشى على قدميه يبيت فى كل بلدة تصادفه حتى وصل الى القاهرة ، ودخلها من جهة باب الحديد فاشترى بما معه شيئاً أكله ، وذهب الى الأزهر فصادف الشيخ محمد السقّارىّ فى طريقه ، فلمّا رأى المترجم أسرع اليه وهش له ، وأخبره أنّه يطلبه من مدّة . ثم أنزله بداره وحلف أن يبقى بها شهراً لا يتكلف شيئاً من عنده ، وكان مراد السقّارىّ نظم قصيدة يمدح بها أحد الأمراء ، فنظمها له وأخذ السقّارىّ عليها أربعين ديناراً جائزة . ولمّا انقضى الشهر حفّ الله المترجم بعنايته ، فطلبه الشيخ حسن العدوىّ لتصحيح البخارى ، وكان شرع فى طبعه فانتفع بأجر التصحيح . ثم طلب الى ديوان الجهاديّة لتصحيح ما يطبع به ، فقابل هناك أحمد عبيد بك رئيس الترجمة ، وامتحنه فأعجب به ، وكاد يطير فرحا وقال عنه هذا جوهرة خفيت عنّا ، واستخدمه فى الحال للتصحيح بهذا الديوان ، وسعى له حتى محَوا اسمه من الجيش حتى لا يعاد طلبه .

ثقافته شاملة

وكان المترجم فى هذه المدة عاد لطلب العلم والاشتغال به ، مع القيام بالتصحيح بالديوان ، حتى شهد له شيوخه بالتأهل للتدريس فدرّس بالأزهر ، وكان أول درس قرأه فى شوّال سنة ١٢٨٣ . وابتدأ فيه بالقراءة فى الأزهرية . ولم يقتصر رحمه الله على العلوم المتداولة بالأزهر ، بل بحث ونقّب ، واجتمع بالشيخ محمد أكرم الافغانىّ فتلقّى عنه العلوم الحكمية ، وبرع فيها ، وتلقّى عن تلميذه خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملىّ ، ونظر فى الهندسة والجبر وسائر العلوم الرياضية ، وقرأ التاريخ قراءة إمعان وتدبّر ، وطالع كتب اللغة والأدب ، ونظم الشعر السهل ، وكتب الترسّل البديع ، وكان لا يسمع عن أحد يعرف علماً إلاّ ويسعى اليه ، ويتلقاه عنه كائناً من كان ، حتى صار نسيج وحده ، وقريع دهره ، فى سائر العلوم مع بعد النظر فى السياسة ، وسعة العقل ، وسلامة العقيدة ، وشدة الأنكار على البدع والمستحدثات فى الدين .

مشاهير تلاميذه

وقد قرأ عليه فى الأزهر كثيرون من علمائه المشهورين ، فكان الشيخ الأجلّ أحمد أبو خطوة ، والشيخ محمد عبده ، والسيد احمد الشريف ، وابراهيم بك اللقانى ، والشيخ محمد راضى البولينى ، ممن قرأ عليه فى الطبقة الأولى من تلاميذه . ثم قرأت عليه طبقة ثانية منها الشيخ عبد الرحمن فوده ، والشيخ محمد الغرينى ، والشيخ عبد الرحمن قرّاعه ، وقرأ عليه أيضاً الشيخ محمد بخيت ، والشيخ داغر ، والشيخ محمد المغربىّ ، والشيخ أحمد الزرقانىّ ، وغيرهم ممن لا يحصون ، واختصّ به الشيخ أحمد أبو خطوة ، والشيخ راضى البولينى ، والشيخ عبد الرحمن فودة ، والشيخ عبد الرحمن قرّاعة ، فكانوا يقرأون عليه فى داره دروساً غير الدروس الأزهرية ، وصحبوه ولازموه فانتفعوا به فى دينهم وأخلاقهم فوق انتفاعهم بعلمه .

ثم نقل الى نظارة المعارف وعيّن للتفتيش فيها ، ولما مات الشيخ زين المرصفىّ مفتّشها الأول سنة ١٣٠٠ ، وأقيم بدله الشيخ حمزة فتح الله المفتش الثانى جعل المترجم مفتشاً ثانياً . ثم نقل مدرّساً بمدرسة دار العلوم ، فعمّ الانتفاع به ، وتخرّج عليه أحسن من نراهم الآن من الأساتذة المتخرجين فى هذه المدرسة كالشيخ الفاضل حسن منصور ، والشيخ محمد المهدىّ ، والشيخ محمد الخضرى ، والشيخ عبد الوهّاب النجّار وغيرهم من أفاضل الوقت .

وفاته

وبقى فى هذه المدرسة الى سنة ١٣١٧ ، وكانوا شرعوا فى الامتحان قبل الأجازة المدرسية كالعادة ، فلما كانت ليلة السبت ١٧ صفر سهر كعادته . ثم ذهب لداره معافىً ليس به شىء ، واستيقظ فتوضأ وصلى الصبح . ثم طلب الافطار والقهوة ، وأخذته غفوة كان فيها القضاء المحتوم ، فلم تشرق شمس ذلك اليوم الاّ والنعاة ينعونه والمؤذنون يؤذنون على المآذن كالعادة فى موت كبار العلماء ، وأمّ داره شيخ الأزهر الشريف الشيخ عبد الرحمن الشربينى ، والشيخ محمد عبده المفتى ، وجميع العلماء والفضلاء ، وكبار نظارة المعارف ، وتلاميذه من الأزهر ودار العلوم ، وشيعت جنازته تشييعاً سنياً ، فصلوا عليه فى الأزهر ودفنوه بمقابر المجاورين رحمه الله وغفر له عدد حسناته . ومن غريب المصادفات أنه زارنى قبل وفاته بيومين فى ليلة مقمرة ، فجلسنا فى صحن الدار نلعب الشطرنج ، وكان مولعاً به مع قلة اجادته فيه ، فقال لى عند ما أراد الذهاب نحن الآن فى الامتحان ، وقد قربت الأجازة ، وصدرى ضيّق فى هذه الأيام من الناس ، ونفسى تجنح للعزلة ، فهل تعرف لى مكاناً أقضى فيه بعض أيام بعيداً عنهم ؟ فقلت يا سيّدى اذا انتهى الامتحان فالأوفق أن نسافر معاً الى ضيعتنا التى بقويسنا فنخلوا

فيها بكتاب نقرؤه ، فقال نعم الرأى هذا ، وسأستصحب معى ولدى حسناً ليشترك معنا فى القراءة . ثم لم يمض يومان حتى نقله الله الى جواره ويسر له العزلة ، ولكن فى دار قراره ، فاصبت فيه مصيبة لم أُصبها فى بعيد ولا قريب ، لما كان له علىّ من الفضل ولو لم يكن له علىّ سوى تصحيح العقيدة وتأديبى بآداب الحنيفيّة السمحاء لكفى .

الأستاذ يرشد

أما سبب اجتماعى به وقراءتى عليه ، فانى كنت خرجت من المدارس بعد تلقّى ما يُتلقّى بها من العلوم المعروفة وأنا فى سن العشرين ، وقد علق بالعقيدة شىء من آثار التربية بهذه المدارس إلا أنى كنت مولعاً من الصغر بالاسلام ومحاسنه ، والمطالعة فى السيرة النبوية ، ومناقب الأصحاب والخلفاء الراشدين ، فكان ينشرح صدرى لأشياء ، وينقبض من أشياء تعرض لى فيها شبهات . ثم كنت أعرض ما يظهر لى من مكارم الشريعة ومقاصدها على ماعليه الناس من البدع والمحدثات التى تمسكوا بها ، وجعلوها من الأصول الدينية ، فأجد التناقض والتصادم ، فصرت أتردد على كثير من كبار علماء الأزهر وغيرهم ، لعلى أجد عندهم مفرجا فأراهم أحرص من العامة على هذه الخزعبلات ، حتى كدت أحكم بأنها من الدين ، وأن الأمر دائر بين شيئين ، فاما أن يكون الدين دين خرافات وخزعبلات تنفر منها الطباع السليمة ، وإما أن يكون ما نراه حقاً ، ولكن يمنعنا من قبوله إلحاد تأصل فى النفس . حتى أرشدنى بعض الأصحاب للمترجم ، فأخذت فى السؤال عنه من أهل العلم ، فكانوا ينفرّوننى منه حتى بالغ بعضهم عامله الله بما يستحق ورماه بالزندقة ، فقلت اذا كنت لم أجد طَلِبتى عند من تسمونهم بالصلاح والورع ، فلعلى أصيبها عند الزنادقة . ثم سعيت فى الاجتماع به ، وسألته القراءة عليه ، والاهتداء بهديه ، فقرأت عليه العلوم العربيــة والمنطق ، وأعدت عليه الصرف بتوسّع وعلوم البلاغة . ثم قرأت طرفاً من الحكمة فى شرح الدوانى على هياكل النور للسهروردى ، وشرح رسالة الزوراء وغير ذلك . ولما رآنى مجدّا فى التحصيل ، قرر لى درساً ثانياً بعد العشاء كنا نقرأ فيــه كتب الأدب ونحوها ، وأنا فى كلّ هذه المدّة أستوضح منه ما أشكل علىّ فيحلّه لى ، فكان اجتماعى به ومصاحبتى إياه من أكبر نعم الله علىّ فى دينى ، وكثيراً ما كان يغضب منّى ويؤنّبنى اذا رأى منى تهاوناً فى الصلاة .

وكان من عاداته الخروج إلى الريف كل خميس ترويحاً للنفس فكان يذهب إلى الأميرية من ضواحى القاهرة عند تلميذه الشيخ عبد الرحمن فودة فيقضى عنده الخميس والجمعة ويعود يوم السبت فلما عرفته صار يذهب للأميرية بعض الأخمسة ويسافر فى بعضها إلى ضيعتنا التى بقويسنا أو إلى حلوان حينما نسكن بها شتاء ، فكنت أقضى معه هذين اليومين فى مطالعة واشتغال حتى فى حالة المشى والتنزه كنت أحمل الكتاب معى وأسمعه فيه فيقرر لى المسائل ونحن سائران

كان متصوفاً

وكان رحمه سنىّ العقيدة ، صوفىّ المشرب ، لايحيد عن الشرع قيد أصبع ، آخذاً بمذهب الامام ابن تيمية فى مسئلة الاستغاثة بالقبور والاستشفاء بالموتى ، منكراً على المبتدعة أشد انكار ، آية من آيات الله فى معرفة التفسير وحل مشكلات الكتاب المبين ، متضلعاً من الحديث ، متحصناً بالشريعة فى كل علم يقرؤه من كلام أو حكمة أو تصوف أو رياضيات أو طبيعيات ، وخص باستحضار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى الاستشهاد بها على حل المشكلات الدينية ، فكان أمره فى ذلك عجباً وشأنه فيه مستغرباً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ومع انحراف علماء الأزهر عنه لانكاره عليهم بدعهم وما درجوا عليه ، فانهم كانوا مقرين بفضله ، وكثيراً ما كانوا يحتاجون إليه فى معرفة أسرار الشريعة ، وحل مشكلاتها والرد على الطاعنين عليها من أرباب النحل الأخرى أو المرتدين

أخلاقه ومساعيه

أما أخلاقه فزهد غريب ، وعلو نفس عن الدنايا ، وبعد عن الرياء ؛ وتواضع مع كل انسان ، وسذاجة فى المطعم والملبس والمسكن ، لاينفق على نفسه من مرتبه إلا القليل ويتصدق بالباقى فى الخفاء ؛ فاما مات قام الصراخ فى دور كثيرة يسكنها فقراء وأرامل ، كان يعولهم فى كل شهر بما فضل من نفقته ، وما علم بهم أحد حتى من أقرب الناس إليه وأخصهم به إلا بعد موته .

وكان كثير الاشتغال بأمور المسلمين ، دائم الهموم لما أصابهم من التأخر فى مشارق الأرض ومغاربها ، منتظراً فرجاً يأتيهم ، ولطفاً من الله يحفهم ، فتقوم فيهم دولة شعارها الدين ، تقوى على جمع شملهم ؛ ولذلك لما قام المهدى بالسودان وانتصر انتصاراته المشهورة واستولى على البلاد السودانية ، أحسن المترجم فيه الظن

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

وقام بنصرته بقلبه ولسانه ، حتى اضطر الانكليز أن يسيروا وراءه عيناً يخبرهم بحركاته وسكناته ، وكاد يقع فيما لا تحمد عقباه لولا أن سلمه الله

ولمداومة اشتغاله بالاقراء وتربية النفوس لم يؤلف تأليفاً ، غيراً ن نظارة المعارف لما كلفت كل مدرس بجمع مايلقيه من الدروس ، وكان يدرّس التفسير بمدرسة دار العلوم ، شرع فى جمع ذلك فى كتاب سماه « عنوان البيان » لم يطبع منه غير المقدمة سنة ١٣١٦ ، أى قبل وفاته بسنة .

أحمد تيمور

المعلقــــات

رأى جديد فيها

للأســتاذ عبد المتعال الصعيدى

اختلف علماؤنا قديماً وحديثاً فى سبب تسمية تلك القصائد التى جمعها حماد الراوية باسم المعلقات ، وكان حماد أول من جمعها فى أواخر عصر بنى أمية وأوائل عصر بنى العباس ، وذلك أنه رأى زهد الناس فى الشعر فجمع لهم هذه القصائد السبع وقال هذه هى المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة ، ويراد بالشعر الذى زهد الناس على عهد حماد فيه الشعر الجاهلى القديم ، وإلا فان سوق الشعر كانت رائجة فى عهد حماد ، وكان الشعراء المحدثون فى ذلك العهد لايحصون من كثرة ، وقد ابتدأوا يخرجون على الشعر القديم ويزهدون فيه ويهجرون مذاهبه وأساليبه ، وكان أول من فعل ذلك بشار بن برد الذى يعد فى رأس الشعراء المحدثين ، وكان من أصدقاء حماد المقربين ، فدعا هذا حماداً إلى محاولة إحياء ذلك الشعر المهجور ، وترغيب الناس فى حفظه وروايته ، فجمع هذه القصائد لهم ، ولعلها كانت أول ماجمع من هذا الشعر

ويؤخذ من نص الرواية السابقة فى جمع حماد لها أنها لم تكن قبل جمعه لها تعرف بهذا الأسم « المعلقات » وأنها كانت تسمى عقب جمعه لها القصائد المشهورة ، أخذاً من قوله بعد انتهائه من جمعها « هذه هى المشهورات » ولو كانت تسمى قبل جمعه لهاباسم المعلقات لقال بدل هذا بعد انتهائه من جمعها « هذه هى المعلقات » فسماها باسمها المعروف ، ولم يعدل عنه إلى ماذكره فى تميزها ، فعدوله إلى ذلك دليل على أنها لم تكن تعرف باسم المعلقات ، بل إن عنايته بجمعها وما عمله فى ذلك من أقوى الأدلة على أنها لم تكن تعرف بهذا الأسم ، لأنها لو كانت تعرف قبل حماد به لكان لها اسم يجمعها ، وكانت مجموعة بالفعل فيه ، ولم يكن هناك من حاجة الى جمع حماد لها

فاذا أردنا أن نعرف كيف حدث هذا الأسم « المعلقات » لها بعد جمعها ، فلننظر ماجرى للناس معها بعد جمع حماد لها ، فلقد أخذوا يعنون بحفظها وشرحها ، ثم شغفوا بذلك الحفظ والشرح واتخذوها متناً شعرياً مثل المتون التى دونت فى العلوم بعد جمعها ، وشغف النـاس بحفظها وتعليق الشروح عليها ، ولكن هذه القصائد كانت أسبق جمعاً من هذه المتون ، حتى أتى عليها زمن وهى منفردة بعناية الناس بتعليقها حفظاً وشرحا ، فشاع لها بين الناس هذا الأسم الجديد « المعلقات » ونسوا به اسمها القـديم « القصائد المشهورة » ثم مضوا على ذلك إلى أن جاء من العلماء من عنى بفهم هذا الأسم الجديد لها ، ومعرفة سر اطلاقه عليها ، ففرض له تلك الفروض الخاطئة التى سنبين فيما بعد خطأها

ولاشك أن اللغة تسوغ اشتقاق هذا الاسم « المعلقات » لتلك القصائد مماعنى به الناس بعد جمعها من حفظها وشرحها ، فان الحفظ تعليق لما يحفظ بمحل حفظه ، والشرح تعليق على ما يكون هو شرحاً له ، ولاتزال الشروح التى توضع على المتون ونحوها تسمى شروحاً وتعليقات ، وقد جاء فى القاموس والأساس أنه يقال فلان علق علم أى يحبه ويتبعه ، وعلق شر كذلك ، فهذه المعلقات معلقات مما حدث للناس بعد جمعها من حبهم لها ، وتتبعهم إياها بما كانوا يتتبعونها به من حفظها وشرحها ، وهى معلقات بمعنى محفوظات أو مشروحات ، وقد خصت بهذا الاسم لأنها كانت أول ماعنى بجمعه وتدوينه وحفظه وشرحه من الشعر

فهذا إن لم يكن هو الذى وقع فى حدوث هذا الاسم « المعلقات » لتلك القصائد بعد جمعها ، فهو فرض قريب يرتاح اليه العقل فى بيان وجه تسميتها بذلك ، وهذا شأن كل الفروض العلمية التى يراد منها تقريب فهم بعض المسائل العلمية من العقول ، إذ تستعصى عليها ، ولا يمكنها بيقين معرفة سرها ، وهو خير من تلك الأمور الخاطئة التى يذكرها من يذهب الى أن تلك القصائد كانت تسمى قبل جمعها باسم المعلقات ، ولايذكرها على أنها